ابستيمولوجيا المعقول كمقياس لبناء الحقيقة التاريخية عند روبن جورج كولنجوود[1]

Epistemology of the reasonable as a yardstick for constructing historical truth Upon Robin George Collingwood

خالد بالضياف*

جامعة قاصدي مرباح ورقلة

khaledbeddiaf@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/04/01 تاريخ القبول 2021/05/21 تاريخ النشر 2021/07/05

ملخص:

تُعد مسألة المعقولية التاريخية إحدى النتائج التي أفرزتها النزعة العقلية في عصر التنوير،التي دعت إلى توظيف العقل في شتى مجالات الحياة بما فيها التاريخ، ليكون التاريخ بذلك موضوعا للدراسة العقلية.فالحدث التاريخي لكي يشكل حقيقة تاريخية لا بد أن يكون خاضع لمعيار المعقول،وقابل للفهم العقلي،لكي تتحرر الكتابة التاريخية من كل الترسبات الخرافية واللامعقولة التي ارتبطت بها.

لذا اعتبرت معقولية الحدث التاريخي معيارا لقياس الحقيقة التاريخية، وهذه الدراسة هي محاولة لإلقاء الضوء على فكرة معقولية التاريخ عند الفيلسوف الإنجليزي كولنجوود،رغم أن الفلسفة الإنجليزية في عمومها لم تهتم بدراسات علم التاريخ وفلسفته، *كما فعلت الفلسفات الأوربية الأخرى لا سيما الفلسفة الألمانية و الفرنسية.*

الكلمات المفتاحية: الحقيقة ، التاريخ ، المعقول، المنهج، الإبستيمولوجيا، كولنجوود.

* المؤلف المراسل

Abstract:
The issue of historical reasonableness is one of the results produced by the rationalism in the Age of Enlightenment, which called for the use of reason in various areas of life, including history, so that history would thus be a subject of rational study. For a historical event to form a historical fact must be subject to the criterion of the reasonable and understandable. Mental, in order for the historical writing to be liberated from all the superstitious and absurd sediments with which it was associated.
Therefore, the reasonableness of the historical event was considered a criterion for measuring the historical fact, and this study is an attempt to shed light on the idea of the plausibility of history for the English philosopher Collingwood, despite the fact that English philosophy in general was not interested in the studies of history science and his philosophy, as other European philosophies, especially German and French philosophy, did.

key words: Truth, History, Reasoning, Method, Epistemology, Collingwood.

مقدّمة:

الحقيقة التاريخية والبحث عنها مسألة قديمة قدم الوعي بكتابة التاريخ ،لاسيما وأن التاريخ ارتبط دائما بالروايات الموضوعة والأحداث الأسطورية في مختلف العصور، لذا كان لزاما على المهتمين بحقل الدراسات التاريخية إتباع منهج خاص، للفصل في مدى حقيقة القول التاريخي من عدمها ، ولذلك اعتبرت معقولية الحدث التاريخي معيارا لقياس الحقيقة التاريخية، وهذه الورقة هي محاولة لتسليط الضوء على فكرة معقولية التاريخ عند الفيلسوف الإنجليزي روبن جورج كولنجوود ،هذا ولم يعرف عن الفلسفة الإنجليزية عموما اهتمامها بدراسات علم التاريخ وفلسفته ، كما فعلت الفلسفات الأوربية الأخرى على غرار الفلسفة الألمانية و الفرنسية .

هذا ويعد معيار المعقول في التاريخ إحدى النتائج التي أفرزتها النزعة العقلية في عصر التنوير ، التي دعت إلى توظيف العقل في شتى مجالات الحياة بما في ذلك التاريخ ، ليكون التاريخ بذلك موضوعا للدراسة العقلية. فالحدث التاريخي لكي يشكل حقيقة تاريخية لا بد أن يكون خاضع لمعيار المعقول وقابل للفهم العقلي ، وبذلك تتحرر الكتابة التاريخية من كل الترسبات الخرافية واللامعقولة التي ارتبطت بها .

ومن هنا تعتبر معقولية التاريخي أحد أهم المواضيع التي تطرق إليها المؤرخون وفلاسفة التاريخ الغربيين على غرار فولتير، فيكو وغيرهم ، واعتبروها معيارا لبناء الحقيقة التاريخية: لذلك سنحاول في هذه الورقة البحثية الإجابة عن إشكالية أساسية تتمثل في:

كيف وظف كولنجوود معيار المعقول في محاولته لبناء الحقيقة التاريخية ؟.

هذه الإشكالية يتفرع منها تساؤلين جزئيين هما :

ما المقصود بالمعقول في التاريخ؟ وأين تظهر هذه المعقولية عند كولنجوود من خلال كتابه فكرة التاريخ؟.ولمقاربة هذه الإشكالية اعتمدنا على المنهجين التحليلي والنقدي، لتأكيد فرضية تتمثل في ضرورة إخضاع القول التاريخي لمقياس المعقول.إذا أردنا الارتقاء بالحقيقة التاريخية إلى أقصاها.

أولا: مفهوم المعقول في اللغة والاصطلاح:

أ- المعقول لغة:

لغة من مشتقات عقل ، والمعقول هو ما يمكن تصوره أو إدراكه، فنقول مثلا سعر معقول،أمر معقول ، ونقول لا معقول ،ونقصد بها كل ما هو منافي للعقل.(2)

يتضح من خلال هذا أن المعقول هو الأمر المفهوم الذي يقبله العقل والواقع أي هو الأمر المنطقي. وهذا بخلاف اللامعقول والذي هو المنافي للعقل و الغريب عنه،والذي يتجاوز حدود الإمكان، ويقارب الاستحالة فهو اللامفهوم الذي لا نستطيع إدراكه ،أو تفسيره بأسباب مقبولة في العقل.

ب– المعقول اصطلاحا :

جاء في المعجم الفلسفي أن " مبدأ المعقولية يعني أنه يمكن إرجاع كل موجود إلى قوانين العقل الأساسية ...ويقال أن للشيء معقولية بمعنى أن له صورة عقلية تفسره ، فعندما نقول أن الوجود الحقيقي وجود معقول أي يمكن إرجاعه إلى قوانين العقل، ولا فرق بين قولنا أن الوجود معقول ،وقولنا أن المعقول موجود ،لأن المعقولية والوجود في مذهب المعقولية الكلية شيء واحد"[3].

إذن إن المعقولية هي ما يجعل الشيء معقولا أو مقبولا من خلال وجوده ،لأن الشيء الموجود معقول لإمكانية تصوره ،أو من خلال عدم تناقضه مع قوانين العقل الأساسية ، فالكثير من المفاهيم الرياضية مثلا هي غير موجودة وجودا واقعيا، ولكنها معقولة ، بل إن الرياضيات تعتبر النموذج الأعلى للمعقولية لأنها متسقة ولا تتناقض مع قوانين العقل ، لذلك يمكننا القول فالمعقولية تزاوج بين ما هو عقلي وما هو تجريبي .

من خلال محاولتنا لضبط مفهوم المعقول يمكن لنا أن نستنتج أن المعقولية صفة للشيء الذي نقول عنه معقول ، سواء كان هذا الشيء عقلي قبلي أو واقعي خارجي ، حيث نستطيع أن نقول عن أحداث العالم الخارجي والأشياء بأنها معقولة إذا تقبلناها وعقلناها، حيث يكون كل موجود معقولا ، فكل موجود يقبله العقل عن طريق قوانينه يكون معقولا، لأننا تعقلناه ،فأحداث التاريخ مثلا تكون معقولة عندما يقبلها العقل.

كما نشير أيضا إلى أن العقلاني يكون قبلي في الذهن، وبذلك يكون مصطلح المعقول أعم وأشمل من مصطلح العقلاني ، لأن العقلاني جزء من المعقول .

ثانيا:المعقول في التاريخ :

معقولية الوقائع التاريخية ،هي تلك الأحداث التاريخية التي يقبلها العقل ومنطقه والواقع نفسه،حيث يكون فهم التاريخ فهما معقولا إذا تطابق مع معقولية العقل والواقع ،

وبهذا يكون المعقول في التاريخ نقيضا للأسطوري والخرافي الذي يتناقض مع قوانين المنطق و الحياة والطبيعة والمجتمع ، باعتبار أن الأساطير هي تخيلات إنسانية لا تنتمي إلى المعقول .

ويشير أحد الباحثين إلى المعقول في التاريخ بقوله:" فإذا افترضنا أن اللامعقولية هي صفة الوقائع التاريخية أصبحت المعرفة التاريخية عملا لا جدوى منه ، ولن تكون في أقصى حالاتها إلا مجرد رواية للأخبار ولذلك يجب على المؤرخ أن يتجاوز الرواية نحو التفسير والتعليل، لأن المعرفة التاريخية تنطلق من معقولية الوقائع التاريخية ، وبهذا تكون معقولية التاريخ هي أساس لكل معرفة تاريخية ، والمبرر القوي لكل مشروع تسعى هذه المعرفة إلى إنجازه".[4]

نستنتج من هذا النص أنه يجب أن تكون أحداث التاريخ قابلة للتعقل وللتفسير السببي،وأن لا تكون أحداث التاريخ عبارة عن أحداث فوق مستوى العقل والواقع ،لأنها لو أصبحت كذلك أصبحت أساطير وخرافات لا معنى لها.فمعقولية التاريخ ضرورية جدا للمعرفة التاريخية عموما ولعلم التاريخ وفلسفته خصوصا،لأنها هي التي تجعل التاريخ معرفة بالعقل.

فالقول بلا معقولية الوقائع التاريخية سيقود حتما إلى القول باستحالة كل مشروع لبناء معرفة بالتاريخ ، فلن تكون المعرفة التاريخية في هذه الحالة في أقصى أحوالها إلا روايات عن وقائع مفردة متناثرة لا روابط بينها،ولا علاقات بينها على صعيد تزامنها وتعاقبها،ولا تظهر أية فائدة من دراسة وقائع التاريخ،أي أنه لن يكون هناك أي مغزى أو معنى من دراسة التاريخ.

إذن معقولية التاريخ هي التأمل العقلي في أحداث التاريخ أو دراسة التاريخ بمنطق العقل وهي أساس موضوعي للمعرفة التاريخية،ويشترط في المعقولية التاريخية أن تكون الأحداث التاريخية واقعية حقيقية وأن تجد عللها في أحداث التاريخ.

وما تجدر الإشارة إليه أن مصطلح معقولية التاريخ،أستعمل في العديد من كتابات فلاسفة التاريخ صراحة أو تلميحا، أي استخدام العقل في التاريخ ، أو التأمل العقلي في أحداث

التاريخ ، ونذكر على سبيل المثال فولتير الذي أوضح أن هدف فلسفة التاريخ هو اكتشاف الحكمة أو الصورة المعقولة التي تحرك أحداث التاريخ من أجل تحقيقه،لأنه وجد أن ما يكتبه المؤرخون لا يحقق هذا الغرض ،حيث يقول :" بعد قراءة وصف ما بين ثلاثة ألاف وأربعة ألاف معركة وبضع ألاف من المعاهدات لم أجد نفسي أكثر حكمة مما كنت قبلها حيث لم أتعرف إلا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة" (5).

يتضمن هذا النص فكرة أساسية تتمثل في أن فولتير انتقد سابقيه عندما جعلوا التاريخ السياسي والعسكري هو لب التاريخ، فهذا التاريخ هو صورة عن الجرائم والكوارث والحروب ليس إلا ، فهي أحداث متفرقة لا رابط بينها ، فقد فهم فولتير بأن العقل ينبغي أن يكون سيد الموقف ، وليس التكرار والنقل، فلا شيء ينبغي أن يفلت من تفحصه النقدي ولا شيء ينبغي أن يقبل قبل أن يوزن بميزان العقل ، وهذا الكلام ينطبق على أقوال الأولين، والتعاليم الدينية مثلما ينطبق على المواضيع الدنيوية .

إذن إن فولتير كان يدعو لتوظيف العقل في تفسير الأحداث التاريخية ، ومحاربة الخرافات والأساطير من التاريخ ويشير أحد الباحثين إلى هذا بقوله :" إن فولتير مؤسس المدرسة العقلانية في علم التاريخ، بوصفه العقل الكبير الموجه لها، لأنه يرى أن العقل يمكن المؤرخ من علاج الماضي علاجا يتسم بالذكاء والقدرة على الاستفادة منه" (6).

كما يمكن لنا أن نلاحظ حضور المعقول في التاريخ عند "هيجل" من خلال قوله:" لا بد من استبعاد الأساطير والأقاصيص الشعرية والتراث الشعبي ،لأنها ليست إلا صور غامضة معتمة من فهم التاريخ ، ومن ثمة فهي تنتمي إلى الأمم التي لم يستيقظ وعيها تماما" (7).

إذن نستنتج أن لمعقولية الحدث التاريخي عند هيجل دور كبير في بناء الحقيقة التاريخية ، لأن التاريخ عنده معرفة بالعقل، فكل ما هو غير قابل للتمثل العقلي يجب استبعاده من حقل التاريخ باعتبار، أن التاريخ يرتبط بالوعي ولا مجال للحديث عن تاريخ عند الشعوب التي لم يستيقظ وعيها ولم تعي حريتها بعد.

ثالثا: كولنجوود ونظرته لعلم التاريخ:

لم تهتم الفلسفة الإنجليزية عموما بموضوع التاريخ وعلوم الإنسان عموما ، وحتى من تطرق إليه لم يوفيه حقه وهذا ما عبر عنه كولنجوود من خلال تصريحه: " أما الفلاسفة الإنجليز الآخرون الذين عرضوا لمشكلة التاريخ منذ عهد برادلي[8] قلّما يُضيفوا شيئا له قيمة حتى بضع السنوات الأخيرة.. وبوزانكيت[9] الذي كان وثيق الصلة ببرادلي نفسه، عالج التاريخ باحتقار صريح، على أنّه ضرب من التفكير الخاطئ وأنّه قصة الأحداث المتعاقبة التي نرمقها بعين الشك" [10].

يتضح من خلال هذا النص أن كولنجوود كان رافضا للأ*سلوب التي كانت تنظر بها الفلسفة الإنجليزيّة لموضوع التاريخ*،حيث كان مبحث التاريخ مُهمش في دراساتها، واعتبر نوع من التفكير الذي لا يحمل أي حقيقة فهو مجرد سرد للأحداث *المتعاقبة*.

إن التاريخ حسب كولنجوود يتميز بالخصوصية فلكل حدث تاريخي إطاره الزماني والمكاني والظروف المحيطة به، وبذلك يكون المؤرخ على خلاف العالم الطبيعي الذي لا يهمه سوى التعميم وبناء قوانين عامة حيث أن المؤرخ ينبغي أن يبحث في الفردي والخاص وأن لا يلجأ للتعميم ، لأن عالم الإنسان يتميز بالحرية والتغير المستمر.فالطبيعة والتاريخ موضوعان متمايزان لكل منهما طابعه الخاص ، فلا جديد تحت الشمس في ميدان الطبيعة ، بخلاف التاريخ الذي يعرض لتغيرات المجتمع نحو الأفضل، سعيا إلى الكمال ، فلا بد من تجاوز المعايير العامة والثابتة التي كان ينطلق منها مفكرو عصر التنوير، من خلال تأكيد فكرة الفردية في التاريخ حيث لا توجد لحظتان متشابهتان، فلكل عصر روحه وقيمه وطابعه الخاص.

لقد كنا ننتظر بحسب موقف كولنجوود أن يحصل انفصال بين منهج المؤرخين الذي يعتمد على العقل في البحث عن الحقائق الجزئية المتغيرة، وبين المنهج الوضعي الذي يعتمد

على التجربة في البحث عن الحقائق الثابتة، من أجل اكتشاف القوانين العامة التي تفسر العلاقة بين الحقائق.[11]

فهذا الوعي باختلاف عالم الطبيعة عن عالم التاريخ يستوجب منا البحث عن معايير مختلفة ومنهج مختلف أطلق كولنجوود على هذا المنهج بمنهج التمثل ، حيث كان متأثرا بكروتشه في تأكيده على ضرورة أن يتمثل المؤرخ أحداث التاريخ ويبعث الحياة في شخصياته ، حيث يقول "يتمثل نوع الحياة التي كان يحياها فإذا أراد المؤرخ أن يفهم التاريخ الحقيقي لرجل من صقلية في العصر الحجري الأخير مثلا فعليه أن يحاول أن ينتحل شخصية ذلك الرجل وأن يعيش بعقليته في ذلك العصر فإن عجز عن فعل ذلك ،أو كان غير مهتم بأن يفعل ذلك فإن عليه أن يتخلى عن عمله كمؤرخ ويقنع بأن يكون موظفا في مجال حفظ السجلات والآثار" [12]

وفي نفس السياق يقول:"ذلك أن التاريخ لا تحتويه الكتب أو الوثائق،ولكنه يحيا فقط بوصفه مهمة قائمة ودراسة تنصرف إليها عقلية المؤرخ حين يعرض لهذه الوثائق التاريخية بالنقد والتفسير،ثم هو بنشاطه يتمثل في نفسه تلك الصور العقلية التي يدرسها" [13].

وتعليقا على النصين السابقين نقول أنه لا بد من إعادة تشكيل الماضي في ذهن المؤرخ،فهي عملية لا تعتمد على مجرد سرد للحقائق، فالتاريخ يعبر عن تجربة فهم وتأويل يقوم بها المؤرخ ، حتى تغدو الأحداث التاريخية أحداثا حية، ولذلك لا بد أن يتميز المؤرخ بالعاطفة والخيال والحدس، فهو بهذا يشبه عمل الفنان. أي أن عمل المؤرخ ليس مجرد سرد لمجموعة من الأحداث التي وقعت، بل أن يحيا من جديد حياة من يؤرخ لهم.

لذا فقد هاجم كولنجوود المؤرخين الذين يريدون تطبيق منهج الدراسة على الطبعة في ميدان التاريخ،وهذا ما نفهمه من قوله:"كان من الضروري أن نعرض بالتفنيد المتواصل لما يمكن أن نسميه فكرة وضعية،أو بتعبير أدّق فكرة وضعية خاطئة عن التاريخ،تذهب إلى أنّه دراسة الأحداث المتعاقبة التي طواها ماضٍ سحيق،أحداث تُفهم على الصورة التي يفهم بها

رجل العلم أحداث الكون المادي..وهذا التفسير الخاطئ لموضوع التاريخ،لا يعبر عن خطأ استقرّ في التفسير الفلسفي الحديث عن التاريخ فحسب،ولكنّه خطر دائم على التفكر التاريخي نفسه" [14] .

يتضح من خلال هذا النص أن التاريخ يحكمه منطق التغير لا الثبات،لأنه نابع من الإرادة، لذا لا يمكنه أن يكون مجرد سرد ووصف لأخبار و أحداث ،باعتباره مزيج من العلاقات الإنسانية المعقدة. فالعالم المادي هو مجرد أحداث ، لكن التاريخ ليس كذلك فهو أفكار، ففي العلم الطبيعي يكون الاهتمام على فهم العلاقات الخارجية للظواهر باعتماد الملاحظة والوصف، بينما في التاريخ يكون الاهتمام حول التنقيب عن الأفكار المشكلة للأحداث ،لأنّ التاريخ يرتبط دائما بالجهود البشرية.حيث يكون موضوع علم التاريخ هنا هو إنجازات الإنسانية في الماضي، لذلك فمنهج علم التاريخ سوف يخالف منهج العلم الوضعي ، وسيعتمد على المعقول والقياس والبرهان والتحليل والاستنتاج والفهم، وتمثّل الماضي عن طريق الذهن ، والتمثّل في التاريخ هو جلب الماضي إلى الحاضر بواسطة العقل، والاعتماد على خيال المؤرخ وثقافته، وبذلك يكون التمثّل في التاريخ منهج للفهم يكون مرحلة سابقة للنقد الذي يأتي بعده .

رابعا:حضور المعقول في التاريخ عند كولنجوود:

يعتبر كولنجوود من أبرز الداعين والمدافعين عن فكرة المعقولية وضرورة إحداثها في الدراسات التاريخية،حيث يشير إلى أنه يجب أن يكون التاريخ موضوعا للتأمل العقلي ، فالتاريخ عنده معرفة تقوم على الفكر أو العقل بل إن التاريخ كما يشير هو تاريخ الفكر البشري وأن مهمة المؤرخ هي أن يحيا من جديد أفكار من يتناولهم بالدراسة من الناس[15] .

هذا وتظهر فكرة المعقول في التاريخ عند كولنجوود من خلال عدة مظاهر أهمها:

أ: يبرز دور المعقول في الفكر التاريخي عند كولنجوود بداية من نقده للمفهوم السائد للتاريخ،إضافة إلى النقد الذي وجهه للمناهج السابقة في التأريخ،ونلمس هذا النقد في نص

له يقول فيه "وإذن لن ينصرف التاريخ إلى المعنى الخاطئ الذي وصف به من قبل ، وهو أنه قصص الأحداث المتعاقبة،أو أنه يعرض لموضوع التغير...فاهتمامه بالمظهر الخارجي للأفكار على النحو ما يبدو في الأحداث ، ذلك أمر يأتي عرضا ويكون بقدر ما تبرز هذه الأحداث" (16).

يتضح من خلال هذا النص أن كولنجوود كان متحفظا على موضوع التاريخ عند سابقيه باعتباره كان مجرد سرد ووصف لقصص وأحداث وأسماء ووقائع وأوقات، فكان طابعه إخباريا ينقصه التحليل والتعليل ومواضيع متبدلة من دون وعي الحكمة من هذا التبدل، وبذلك كان ممتعضا من المنهج المستعمل في التاريخ حيث لم يكن راضيا نهائيا عن مصداقية علم التاريخ كما كان سائدا، فمنهجه الذي لا يعير اهتماما للمعقول لم يكن قادرا على تطوير علم التاريخ وبلوغ الحقيقة التاريخية، إذ ينبغي أن يكون هدف المؤرخ من بحثه في التاريخ هو اكتشاف الفكر المتضمّن في الأحداث ،لأنّ التاريخ وثيق الصلة بالجهود الإنسانية ، فموضوع التاريخ دائما هو جهود الإنسانية في الماضي، وإنّ علميّة التاريخ حسب كولنجوود ينبغي أن تستند إلى الاستدلال والتحليل والبرهنة والفهم، وتمثل أحداث الماضي بواسطة العقل.

كما ينتقد منهج التاريخ عند سابقيه في نص أخر له يصرح فيه"إن المعرفة التاريخية ليست من قبيل الترف أو ليست مجرد هواية من الهوايات صادرة عن عقل يستمتع بالفراغ بعد المجهود الشاق الذي يقوم به في نواحي أخرى ، بل هي واجب رئيسي يعتبر القيام به أمرا جوهريا لإقرار كيان العقل نفسه، لا العقل في صورة من صوره أو لون من ألوانه الجزئية فحسب" (17).

ما يمكن استنتاجه من هذا أن كولنجوود يرفض أن يكون التاريخ مجرد سرد ووصف لأحداث تتعاقب من أجل المؤانسة والتمتع والترف ، أو هو مجرد أخبار عن الحضارات والدول السابقة ، فالتاريخ ليس مجرد حوادث مفككة تأتي فرادى بدون أية رابط، لأن

التاريخ ينبغي أن يكون معرفة عقلية في المقام الأول ، فهو علم لا فن، والحقيقة التاريخية أمر لازم لإثبات العقل الإنساني.ولذلك فلا بد من إعادة الاعتبار لعلم التاريخ وتأسيسه على أسس عقلية متينة.

فليس التاريخ مجرد وثائق ومستندات لأن مجرد تجميع المادة التاريخية يجعل من التاريخ عملا من أعمال القص واللصق، ومن المؤرخين مجرد كتاب حوليات ككتاب الأرشيف[18].

ب : إن دراسة التاريخ عند كولنجوود هي دراسة الفكر فلا يتم فعل الإنسان في التاريخ إلا بالفكر، حيث يبين هذا في نص له مفاده :" لذلك لن يكون موضوع المعرفة التاريخية مجرد موضوع ،أو شيء خارجي بمعزل عن العقل الذي يعرفه، وإنما هو نشاط للفكر لا سبيل إلى معرفته، إلا عندما يتمثله العقل الخليق بالمعرفة نفسه" [19].

إن الأمر اللافت للنظر من خلال هذا النص أن كولنجوود يؤكد بأن إدراك الحوادث التاريخية بمعزل عن العقل أمر غير ممكن ،لأن الأحداث التاريخية لا يمكن فهمها خارج العقل ، فكل محاولة لفهمها خارج إطار العقل هي محاولة عديمة الجدوى ،باعتبار أن جوهر التاريخ هو العقل، وميدان التاريخ هو مسرح لأفعال العقل. وبذلك فلا معنى للحديث عن التاريخ دون الحديث عن نشاط الإنسان فيه.

لذلك يمكننا القول أنه من الخطأ الجسيم أن نعتبر التاريخ مجرد دراسة لأحداث وقعت في الماضي فالواقع الفعلي يحدده فكر، لا بد أن يتمثله المؤرخ،ومن ثمة فكل التاريخ هو تاريخ فكر[20].

ج: إن مهمة عقل المؤرخ هي إعادة تمثل وتصور الحادثة التاريخية وتركيبها وتنظيمها وتحليلها للتأكد من كونها معقولة ومنطقية وهذا ما عبر عنه بقوله:" إن التاريخ في حقيقته ليس إلا أن يعيد التفكير الماضي سيرته في عقلية المؤرخ" [21].

إن هذا يعني بأن التأريخ هو إعادة بناء للحادثة التاريخية وفق مقتضيات العقل ولكن أي عقل إنه ليس العقل النظري المجرد، بل المعقولية التي تجمع مع بين المنطقي والواقعي حيث

يصرح بهذا من خلال قوله :"إن الأشياء التي يعرض لمناقشتها المؤرخ ليست من قبيل المجردات ، ولكنها من قبيل الموجودات المادية ليست من قبيل الكليات ولكنها جزئيات ،ولاهي بمعزل عن الزمان والمكان،ولكن لها زمانها ومكانها المحددان من أجل ذلك نجد أن التاريخ لا يمكن أن يلتقي مع النظريات التي تذهب إلى أن موضوع المعرفة شيء مجرد لا يأتي عليه التغيير، أو أنه كيان منطقي يستطيع العقل تكييفه بشتى الطرق واختلاف الأساليب" (22).

يتضح من هذا أن ما هو معقول يجمع دائما بين ما هو قبلي وبعدي ، أو بين النظري والمادي فالمعقول كما سبق وأن أشرنا أعم من العقلاني ، والمعقول يتضمن العقلاني بل إن كل منهما يحتوي الأخر حسب هيجل فكل ما هو معقول واقعي وكل ما هو واقعي معقول ، وبذلك يُصر كولنجوود على أن تكون الأحداث التاريخية أحداث واقعية أولا، فلا يجب أن نخضع أحداث التاريخ لنسق فلسفي قبلي ،أي أنها أحداث جزئية خاصة لا تعميمات عامة ،وهو بهذا يكون أقرب إلى علم التاريخ وأبعد عن فلسفة التاريخ، فلا يجب وضع صورة كلية عامة نفسر التاريخ في ضوئها ، فتكون الأحداث التاريخية تابعة للنمط المنطقي لفيلسوف التاريخ، كما فعل جل أعمدة فلاسفة التاريخ.

د : إن الإشارة إلى أخطاء المؤرخين وتبيين أسبابها كانت البداية لابستيمولوجيا المعقول عن كولنجوود ،حيث أشار إليها في نص له مفاده: "قد يكون هذا المصدر الذي ينقل عنه ثرثارا أو قد يشتط في التفاصيل ، أو قد يكون مجرد رواية يحلو له الحديث عنها ، أو قد يكون مغرما بإثارة المشكلات، أو قد يكون أغفل جانبا من الحقائق أو نسيها أو تعمد حذفها ...أو قد يكون أخطئ تكييف الأحداث عن جهل أو إصرار منه" (23).

يرتكز مضمون هذا النص على فكرة واحدة هي أن بعض المؤرخين يقبلون كل الأخبار الواردة إليهم ويصدقوا بها متناسين أن الناقل قد يكون مدلسا كاذبا ، فإذا نقلنا عنه نكون قد تلقينا الكذب منه ونقلناه من دون وعي ،كما قد يكون الراوي أو المؤرخ مبالغا في نقله

أو مبالغا في ذكر تفاصيل جزئية التي لا تفيد الحقيقة التاريخية في شيء ، وقد يكون هذا على حساب بعض الأحداث المهمة ، كما قد يكون الراوي قد عدل الأحداث عن غير قصد منه ، فهذه الأخطاء هي التي جعلت التاريخ يبتعد عن الحقيقة، مما يحتم علينا إعادة النظر في منهج كتابة الحقيقة التاريخية ، وإرساء قاعدة جديدة يتبعها المؤرخ في بحثه عن الحقيقة ، فقد أصبح علم التاريخ مع الكثير من المؤرخين ذو طابع سردي ينقصه التحليل والتعليل، حيث يركز ناقل الخبر على الراوي ويهمش مدى معقولية الحدث في حد ذاته، فهو بذلك يعتمد على التصوير والنقل دون التفسير، لذلك تضمنت كتب التاريخ العديد من الأخبار الغير معقولة.

هـ: إن إهمال مقياس المعقول وعدم إخضاع الحقيقة التاريخية له هو ما أخر علم التاريخ، وضيع الحقيقة التاريخية، وهو المقياس الذي دعا إليه كولنجوود صراحة في نص له:"إن ما جاء في المصادر التاريخية لا ينهض مقياسا على صدق الحقيقة التاريخية ، فالشيء الذي يجب مناقشته هنا هو نصيب هذه المصادر التاريخية من الصدق، وقيمة ما تنقله من بيانات...وحتى لو قبل المؤرخ ما قالت به هذه المصادر فهو في هذه الحالة لم يقبله على مسؤولية هذه المصادر، ولكن على مسؤوليته الخاصة، إنه لا يقبل الرواية في هذه الحالة لأنها جاءت نقلا عن هؤلاء الرواة ، ولكن لأنها تتسق مع مقياسه الذي يقيس به الحقيقة التاريخية" (24).

نستنتج من هذا النص أن الروايات والنقل ليست أبدا مقياسا لصحة الخبر التاريخي، فالأساس الذي ينبغي أن نقيس به الحقيقة التاريخية هو مدى خضوع هذا الخبر لمبدأ المعقول، أي تطابقه مع قوانين العقل والواقع مهما كان ناقله معروفا أو أمينا ، فلا ينبغي أبدا أن يكون هناك أوهام مسرح في علم التاريخ أي أن الحقيقة التاريخية لا تعرف بقائلها مهما كان،بل تعرف بمدى معقوليتها.

فضلا عن هذا فإن " التاريخ الذي يعتمد اعتمادا كليا على كل شهادة الثقات لا يعتبر من قبيل التاريخ إطلاقا وان كنا لا نجد اسما نضيفه عليه، فالتاريخ الذي يقوم على اقتباس وجمع أقوال مستقاة من مصادر مختلفة سأطلق عليه جمع المقتطفات" (25).

يتضح من خلال هذا النص أن التاريخ الذي يعتمد على الرواة والأسانيد ولا يخضع الروايات إلى عنصر المعقول لا يستحق أن يدرج ضمن مباحث التاريخ، فقد يكون لونا من ألوان الأدب ، كأن يكون رواية أو قصة، فالتاريخ علم له أصول وقواعد، فربما قد نطلق على التاريخ الذي يستند للرواية اسم حوليات أو مقتطفات، ولكن لا يستحق أبدا أن نطلق عليه اسم تاريخ.

و: ويضع كولنجوود مجموعة من القواعد التي إذا اتبعها المؤرخ ستساعده في بلوغ الحقيقة التاريخية تضمنها هذا النص الذي يقول فيه: "لا بد أن لا يلجأ المؤرخ إلى نقل الرواية بحذافيرها، بل لا بد عليها أن يستعين ببيانات ينتهي إليها عن طريق الاستدلال العقلي، وإلى منهاج البحث الذي استنه لنفسه ،والى القوانين العلمية التي تحكم الصلة بين التفاصيل وهو في هذا الجزء من إنتاجه لا يعتمد على المصادر التي ينقل عنها إطلاقا، كأن ينقل ما جاء فيها بحذافيره وإنما يعتمد على اختصاصاته وأن يكون هو الحجة لنفسه،في حين أن ما اصطلحنا على تسميته بالمصادر التي ينقل عنها لن تصبح مصادر بعد الآن وإنما هي مادة تاريخية" (26).

إن كولنجوود من خلال هذا النص يؤكد على ضرورة إبعاد الرواية في التأكد من معقولية الخبر، والتأكيد على عنصر مطابقة الخبر للواقع ،أي على المؤرخ أن يتحاشى النقل الحرفي للروايات ، ويكون ناقدا ممحصا ينطلق من قواعد وأسس يتوصل إليها عن طريق البرهان المنطقي ، ويأخذ بعين الاعتبار المنهج العلمي القائم على مدى معقولية الخبر ، فهو في هذه المرحلة لا يستند إلى المصادر بتاتا، وإنما يعتمد على المنهج الذي وضعه لنفسه،أما المصادر

التي ينقل عنها فعليه أن يخضعها لسلطان العقل ، وعليه أن ينظر لكل المصادر باعتبارها مجرد مادة أولية للتأريخ ولا تمثل أية حقائق قبل إخضاعها لمعيار المعقول.

وفي هذا السياق يؤكد في نص أخر له:" إن تجارب الحياة تعلمنا أن ثمة أشياء تحدث وأخرى لا يمكن أن تحدث ، وإذن فهذه التجارب هي المقياس الذي يطبقه المؤرخ على ما جاء نقلا عن هؤلاء الرواة الثقات فإذا قال هؤلاء الرواة بحدوث أشياء يرى المؤرخ طبقا لتجاربه أنها لا يمكن أن تحدث ،كان هذا المؤرخ في حل من عدم تصديقها أو الأخذ بها ، أما إذا كان ما قاله هؤلاء الرواة شيئا يمكن أن ينسجم مع تجاربه فهو في حل من قبول الرواية" (27).

نرى في هذا النص أن الواقع اليومي والتجارب الحياتية تخبرنا بأن هناك سرديات وروايات يمكن أن تقع وبذلك فهي خاضعة لمبدأ المعقول ، لذا يمكن اعتبارها حقائق تاريخية ، وهناك أشياء أخرى لا يمكن أن تحدث من الناحية الواقعية والمنطقية ، فعلى المؤرخ أن يُخضع الخبر التاريخي لمبدأ المعقول وإلا رفضه باعتباره لا يمثل أية حقيقة ، فالتاريخ مليء بالروايات الغير معقولة والتي كان لها دور كبير في تشكيل الوعي العام .

في هذا السياق يمكن أن نقول بأن منهج كولنجوود يجمع بين المنطق والتجربة، أي بين الاستقراء والاستنتاج. فكان السؤال دائما هل تتفق النظرة العامة للخبر التاريخي مع التجربة والمنطق؟. وبهذا كان يرفض كل رواية تاريخية لا تخضع لمنطق الحياة والتجربة حيث كان يرى بأن كل رواية لا تخضع لمبدأ التحقق الواقعي والمنطقي هي رواية مغلوطة.

ز: إن للحاضر دور كبير في توضيح معقولية الماضي من عدمها وهذا ما يمكن أن نلمسه في هذا النص لكولنجوود "إن المعرفة التاريخية هي إدراك ماضي المجتمع الذي نعيش فيه، في الوقت الذي نعيش فيه في حاضره الذي ينسج خيوطه ، فالحقيقة هي أن المعرفة التاريخية إن هي إلا تصوير لتجارب الماضي في عقل من يعيش في الحاضر" (28) .

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن كولنجوود يطلق على إدراك الماضي بعقلية الحاضر مصطلح التمثّل،ومعنى التمثّل في التاريخ هو محاولة فهم الماضي بالحاضر، أي فهم التاريخ أساسا من أجل استرجاع الخبرات الماضية عن طريق الفكر. والتمثّل في التاريخي هو نقل الخطاب الماضي إلى الحاضر بواسطة الفكر والاعتماد على خبرة المؤرخ وثقافته ، ومعرفة مدى معقوليته حيث يعتبر الحاضر معيارا لما يمكن أن يحدث في الماضي.

فدراسة التاريخ هي بعث للماضي وإعادة إحياء له لا مجرد استعادته وتسجيله، فتصبح الأحداث التاريخية حاضرة وتتحول الوقائع الميتة إلى نبضات حية[29].

فإذا كانت المعرفة التاريخية تتجه بطبيعتها إلى الماضي،فهذا لا يعني أن الحاضر يظل بصورة مطلقة خارج اهتماماتها ، ذلك أن الحاضر يمكن أن يساعد على فهم الماضي، فنحن نستطيع أن نفهم وضعا تاريخيا ما لا بالنظر إليه في ذاته بوصفه ماضي فحسب ، ولكن بالنظر إليه انطلاقا من الحاضر أيضا، ذلك أن حقيقة أي وضع تاريخي قد تنكشف لنا بفضل معطياته التي كانت فيها واقعا راهنا ، فالحاضر هو الذي يبرز أحيانا ما كان كامنا في الماضي[30] .

إذن يمكن أن نستنتج أن للحاضر دور كبير في إبراز معقولية الوقائع التاريخية، من حيث أنه معيار للحكم بإمكان الوقائع التي نبحث فيها ، فما هو معقول وممكن التحقق في الحاضر هو كذلك في الماضي إذ يكون الماضي في الحاضر أكثر قابلية للفهم.

ح: يقوم التاريخ على البرهنة والتحليل والتعليل والبحث عن الأسباب الفاعلة والمحركة للتاريخ والقيام بعملية القياس والاستدلال حيث يصرح كولنجوود قائلا :"والواقع أن مثل التاريخ كمثل علوم القياس الصحيح من حيث أن العمليات الطبيعية للفكر تقوم على الاستدلال ، أي أنها تسلم في أول الأمر بهذه المقدمة أو تلك ثم تتساءل بعد ذلك عما تنتهي إليه هذه المقدمة "[31].

في هذا السياق يمكننا أن نقول بأنه على المؤرخين أن يكونوا على دراية باستخدام الأدوات المنطقية كالقياس والاستدلال وفحص النتائج ،لأن التاريخ هو معرفة بالعقل، فإذا كانت المنطلقات التي ينطلق منها الخبر التاريخي صحيحة كانت النتائج صحيحة بالضرورة، حيث يقترح كولنجوود منهج يبدأ بالفرض ثم التأكد من صحة الفرض ، بالاعتماد على التجربة الواقعية انطلاقا من مبدأ المعقول ، وبعدها استخلاص النتائج.

فضلا عن ذلك تظهر المعقولية التاريخية من خلال اعتباره للتاريخ بأنه معرفة تقوم على العقل ،حيث يشير إلى هذا من خلال قوله :" إن المعرفة التاريخية هي المعرفة الوحيدة التي يمكن للعقل الإنساني أن يعرف نفسه بها ، والذي يسمونه علم الطبيعة الإنساني أو علم العقل الإنساني، هو في حقيقته التاريخ" .(32)

في هذا النص يبين كولنجوود صراحة على ارتباط علم التاريخ بالعقل ، فعلوم الطبيعة والمنطق هي في جوهرها نوع من التاريخ.

ط: يؤكد كولنجوود على ضرورة التزام المؤرخ بالموضوعية والابتعاد عن الذاتية في كتابة التاريخ كخطوة أساسية لبلوغ الحقيقة في ميدان التاريخ ونلمس هذا في نص له مفاده :" إن التزام الموضوعية التامة في دراسة التاريخ،واستبعاد كل العناصر الذاتية ذات الأثر في تكييف وجهة نظر المؤرخ، لأنه لا يجوز للمؤرخ أن يصدر أحكاما تقيمية وأخلاقية على وقائع التاريخ وقضاياه فيقول هذا حسن وذاك سيء وإنما عليه أن يعرض علينا ما حصل في الماضي بكل حيادية وتجرد" (33).

ما يمكننا فهمه من هذا النص هو أن الباحث في ميدان التاريخ جزء لا يتجزأ من الظاهرة التي يدرسها.فمن الطبيعي أن يشعر تجاهها بميول وأهواء معينة،تفرضها الايدولوجيا السياسية والاجتماعية،والبيئة الثقافية والحضارية التي ينتمي إليها،فتؤدي بالمؤرخ إلى إضفاء الإسقاطات التقيمية أو الأحكام على موضوع بحثه وهذا ما يناقض حقيقة العلم الذي يرفض تدخل عنصر القيمة،وهو عنصر يصعب إلغائه من التاريخ ، لأن قيم الباحث ستكون حاضرة

دوما،فعلى المؤرخ أن يكون موضوعيا وحياديا ومتجردا قدر الإمكان،ويحاول عزل كل ما له علاقة بالذات من أحكام وقيم ،لأن التحيز والتعصب لفئة أو جهة معينة من أسباب عدم بلوغ الحقيقة التاريخية.

خاتمة:

يعتبر كولنجوود من أهم الفلاسفة الإنجليز الذين اهتموا بحقل الدراسات التاريخية، وهو من القلائل في بلاده الذين بينوا بأن الحقيقة التاريخية لا تقل أهمية عن باقي الحقائق العلمية ، فقد كان كولنجوود يدعو إلى ضرورة ربط التاريخ بالعقل والفكر، فكان شعاره دائما: "كل التاريخ تاريخ فكر"، لذلك يمكن اعتباره من رواد البحث في ميدان التاريخ وعلاقته بالفلسفة،وهو يشكل إضافة حقيقية للفلسفة الإنجليزية في ميدان فلسفة التاريخ .

وتجدر الإشارة إلى أن كولنجوود كان مخالفا للنزعة التجريبية الإنجليزية التي لا ترى ضرورة لعناية الفلاسفة بالتاريخ،فالتاريخ للمؤرخين، كان هذا الاختلاف هو السبب في عدم الترحيب بأعماله في الأوساط الإنجليزية ووسمه بالفيلسوف المثالي.

الهوامش:

([1])كولنجوود روبن جورج(1889-1943) فيلسوف ومؤرخ وعالم أثار إنجليزي ، بدأ حياته متأثرا بالمدرسة الواقعية الإنجليزية ،ثم انقلب على هذه المدرسة ليصبح موقفه متعاطفا مع المدرسة المثالية ، من أهم مؤلفاته مقالة في الميتافيزيقا، فكرة التاريخ ، وهو كتاب نشر سنة 1948 أي بعد وفاته ، في كتابه مقالة في الميتافيزيقا أعلن وحدة التاريخ والفلسفة ، أما في كتابه فكرة التاريخ فهو يشدد على أن التاريخ هو في الحقيقة تاريخ الفكر البشري وأن مهمة المؤرخ هي أن يحيا من جديد أفكار من يتناولهم بالدراسة من الناس. هذا ويعتبر كولنجوود من أبرز الداعين إلى إحداث المعقولية في الدراسات التاريخية.

([2]) صبحي حموي: المنجد في اللغة العربية المعاصرة ،دار المشرق،بيروت،ط2000،1،ص1003.

([3]) جميل صليبا :المعجم الفلسفي ،دار الكتاب اللبناني،بيروت،دط،ج2،1978،ص396 .

([4]) محمد وقيدي: معقولية التاريخ ومعقولية التأريخ، مجلة الفكر العربي المعاصر ،بيروت –باريس ،العدد 1991،82،83، ص28.

([5]) أنظر : أحمد محمود صبحي ،في فلسفة التاريخ،مؤسسة الثقافة الجامعية،الإسكندرية ، دط،2000،ص161.

([6])بارنز هاري المر: تاريخ الكتابة التاريخية ، ترجمة محمد عبد الرحمن برج،الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ، دط ،1987،ص216.

([7]) هيجل :العقل في التاريخ ،ترجمة إمام عبد الفتاح إمام،دار التنوير للطباعة والنشر،بيروت،دط،1983، ص ص 68-69.

([8])فرانسيس هربرت برادلي:(1846-1924)فيلسوف إنجليزي ذو نزعة مثالية.

([9]) برنارد بوزانكيت:(1848-1923) فيلسوف إنجليزي من أتباع الهيجلية الجديدة.

([10]) كولنجوود:فكرة التاريخ، ترجمة بكير خليل،لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،ط1968،2،ص259.

([11])هاشم يحي الملاح:المفصل في فلسفة التاريخ،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1،2007،ص429.

([12]) كولنجوود : فكرة التاريخ،مصدر سابق،ص ص349-350.

([13]) نفسه،ص354.

([14]) نفسه،ص396.

([15])راجع،نفسه، ص400.

([16])نفسه،ص380.

([17]) نفسه،ص ص 395-396.

([18]) راجع،أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، مرجع سابق،ص31.

([19]) كولنجوود: فكرة التاريخ،مصدر سابق،ص381.

([20]) راجع أحمد محمود صبحي:في فلسفة التاريخ،مرجع سابق،ص32.

([21]) نفسه،ص397.

([22]) نفسه،ص408.

([23]) نفسه ، ص408.

([24]) نفسه ،ص412.

([25]) نفسه، ص444.

([26]) نفسه ،ص411.

([27]) نفسه، ص414.

([28]) نفسه، ص454.

([29]) راجع،أحمد محمود صبحي،في فلسفة التاريخ، مرجع سابق،ص ص 44-45.

([30]) راجع،محمد وقيدي: معقولية التاريخ ومعقولية التأريخ،مرجع سابق،ص27.

([31]) كولنجوود،فكرة التاريخ،مصدر سابق،ص433.

([32]) نفسه،ص 383.

([33]) نفسه،ص ص235-236.